الجيش والبحرية

فى العصر العباسى الأول

للدكتور حسن ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب

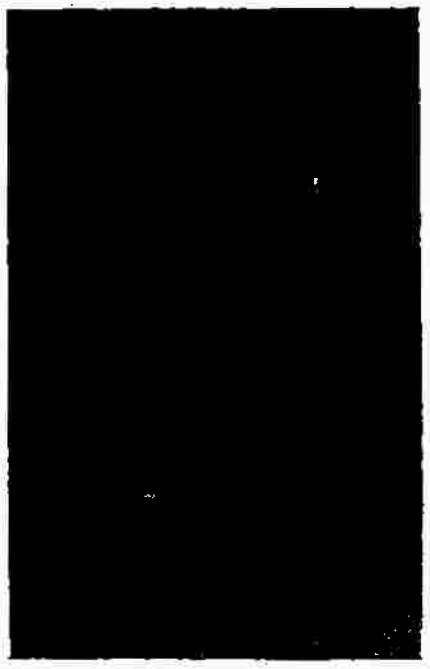

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذى نما نمواً عظيما على أثر دخول الكثيرين فى الاسلام وانضوائهم تحت لوائه ، وقد بلغ عدده فى عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجند ، ووصل هذا العدد فى العراق وحدها إلى ١٢٥٫٠٠٠ جندى . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامى للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام . ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم ، ولما بلغت قوة العباسيين أشدها فى بغداد ، أصبح الجندى يتقاضى راتباً شهريا قدره عشرون درهما (وكان الدرهم يساوى أربعة قروش تقريبا) ، وكانت هناك مع الجنود النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل دينية أو مادية

وكان تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده : فمنهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ؛ وهؤلاء من جند العرب . والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين (وكان من سياسة الخلفاء أن يحكموا عرب الشمال والجنوب بتركهم يحارب بعضهم بعضا) ؛ حتى إذا ما انقضى العصر العباسى الأول دخل فى الجيوش العباسية عنصر جديد مالبث أن غدا له النفوذ ، وأصبح أشد خطراً من الخراسانيين ، وهو عنصر الأتراك الذين كانوا يكونون القسم الرابع من الجيش العباسى . وما انفكت جموع هؤلاء الأتراك تتدفق سنة بعد سنة على أسواق بغداد حتى استطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى جيش الخليفة أخيراً ؛ وقد خصهم الخليفة برعايته أملا فى أن يكونوا بذلك أقوى ساعد للخلافة العباسية . ومن ثم أصبحوا حراس الخلفاء ، وسرعان ما أضحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من جراء عنتهم وجورهم شيئا كثيراً ، وما لبث أن امتد نفوذهم إلى الخلفاء الذين غدوا تحت رحمتهم (١)

وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد هذه الدولة أبو مسلم الخراسانى ، وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ؛ وعبد الله ابن على العباسى على جند المغرب ، وأكثره عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبد الله بن على على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم بجنده الخراسانى كان هذا انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين فى الجيش ؛ بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده ، فقضى عليه . ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين ، لأن العصبية العربية كانت لا تزال فى قوتها ، فاصطنع كثيرين من العرب ، وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته . فمن أعظمهم عيسى بن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى وأخيه ابراهيم . وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ؛ واشتغل مع يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه فى واسط ، ولما سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذى ثار فيه الراوندية على المنصور ، فقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وسماه «أسد الرجال» وولاه اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج بمدينة بست (٢) سنة ١٥١ هـ . ومن قواد العرب عمر بن العلاء وهو

(1) Hell : Cultur der Araber, p. 69 - 70

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٧٤ - ١٧٥

أعظم قواد المنصور ، وفيه يقول بشار بن برد :

فقل للخليفة إن جئته نصيحا ولا خير فى المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

وقد وجهه المنصور سنة ١٤١هـ لإخضاع أهل طبرستان ، وكانوا قدخرجوا عليه ، فنازلهم ابن العلاء طويلا ، وفتح بلادهم من جديد ، ولم يزل ممتعا بعطف المنصور ، وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى (١) .

أما الآلات الحربية التى كانت تجهز بها الجنود ، فلم تكن تختلف كثيراً عن الآلات البيزنطية ، فكان من أسلحتهم القسى والسهام والرماح والسيوف والفؤوس الحربية (البلط)

وكانت ملابس الجند تشمل تلك الملابس القديمة الملائمة لهم والتى كانت فى نفس الوقت ذات منظر يدل على ذوق سليم : خوذة ، ودرع ، ومنطقة ، وغيان . وكانوا يعنون عناية خاصة بالسيوف التى كانوا يصنعونها بطريقة فنية ، ويحلونها بالفضة . وكانت السروج مماثلة فى شكلها للسروج الإغريقية التى هى من نوع السروج الشرقية تماماً (٢) .

وكان عرض الجيش جزءا من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية - وبخاصة فى عهد المنصور الذى اهتم اهتماماً كبيرا بالمسائل الحربية . وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ودرعه ، فكانت تصف الجيوش أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مضر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون (٣) . ومما ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب عن حصار جند المأمون بغداد تبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها العباسيون فى ذلك العصر . وهاك ماذكره المسعودى بنصه : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد المنجنيقات ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون ، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم السامين والميازر . وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ، ودرقاً من الخوص والبوارى ، قد قرنت وحشيت بالحصا والرمل . على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقاتلة ، وكذلك النقيب والقائد والأمير ، وناس عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ، ومقاود قد اتخذت ، ولجم من مكاس ومذاب ، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة ، ويأتى النقيب والقائد والأمير ، فتقف النظارة ينظرون إلى حزبهم مع أصحاب الخيول المعدة ، والجواشن والدروع والتجافيف والرماح والدرق التبتية (١) .

ولما ولى المتوكل الخلافة ، أمر كل الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية ، وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعوها فى مناطقهم حول وسطهم (٢) .

ومن أى جهة بحثنا فى الجيش فإننا نصادف ما يماثلها فى العصر الحديث ؛ من ذلك نظام الجاسوسية عند العباسيين ، فقد كانوا يستخدمون فى ذلك كلا الجنسين من الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم ، لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم . ولم تكن الجاسوسية العربية أكثر نشاطا ولا أعم انتشارا فى بلد من البلاد منها فى الدولة البيزنطية التى كانت لا تزال تنافس الدولة العربية ، والتى كان أهلها فى الماضى أساتذة العرب فى الفنون الحربية

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولتهم وهى الثغور ؛ وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم الذى كان غريزيا فيهم . وكان حد سورية المقابل لآسيا الصغرى مصدرا للخطر بالنسبة إلى العرب ؛ وقد تحاربت القوتان المتنافستان مدة طويلة ، فكانت كفة النصر ترجح مرة فى جانب العرب وأخرى فى جانب الإغريق . لذلك كانت هذه الثغور وهى طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، تقع

(١) شرحه ج ٦ ص ١٧٧

(2) Hell p 70 ; Khuda Buksh : Onent under the Caliphs, p. 328.

(3) Khuda Buksh : Ount under the Calipho, p 340, 344, 345; Hell, p 70.

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(2) Hell : p 71.

طورا فى أيدى العرب ، وطورا فى أيدى الروم .

ولما استولى المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى مثل طرسوس وأذنة ومرعش وملطية حصنها وأحكم بناءها من جديد وأطلق عليها اسم الثغور (١)

ولما ولى هرون الرشيد الخلافة أنشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور ، جعل لها نظاما عسكريا خاصا وأقام فيها المعاقل ، كما أمدها بحاميات دائمة ؛ ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضا قاموا بتعميرها ، وزراعتها هم وأسراتهم ، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ، ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول (٢) ، وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون الهدوء يلجأون إلى هذه الثغور والتفرغ للبحث والدرس .

وهناك ناحية أخرى تدل على قوة المسلمين فى ذلك الوقت هى الأساطيل الحربية . ولم يكن العرب يعنون بالحروب البحرية فى صدر الإسلام لبداوتهم وعدم ممارستهم ركوب البحر . وكان أول من ركبه أبو العلاء الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد الفرس فى اثنى عشر ألفا من المسلمين دون اذن الخليفة ، وعادوا إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى بلاد فارس . ولما علم بذلك عمر - وكان يكره ركوب البحر - غضب على أبى العلاء وعزله . ولما فتحت الشام ألح معاوية على عمر فى ركوب البحر كى يغزو بلاد الروم لقربها منه ، فيكتب إليه يردعه عن ركوب البحر

ولما ولى عثمان الخلافة ألح عليه معاوية فى غزو بلاد الروم ، فاذن له على ألا يحمل الناس على ركوب البحر ، فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس فغزوا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، كما غزا عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان البحر ، فحارب سنة ٣٤ هـ قسطنطين بن هرقل وانتصر عليه فى موقعة ذات الصوارى . وفى هذه السنة أيضا فتح العرب جزيرة قبرص ، كما جردوا حملة لغزو البلاد البيزنطية . ومنذ ذلك الوقت أخذت الحملات البحرية تترى على تلك البلاد

ولما ولى معاوية الخلافة عنى بإنشاء السفن الحربية ، وفى عهده غزا عقبة بن عامر جزيرة رودس . وفى ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) ، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ؛ ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة سنة ٥٤ هجرية دار لبنائها فى جزيرة الروضة (١)

أما أن العرب كانوا مدينين فى الأصل للبيزنطيين فى هذه الناحية من الفنون الحربية فهذا أمر لاسبيل إلى إنكاره ؛ إلا أن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة وإن تتلمذوا للبيزنطيين فى تلك الناحية فترة من الزمن ، فانهم قد أصبحوا أساتذة أوربا فى هذه الفنون . يدلنا على ذلك هذه الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربة إلى اليوم ، والتى لاتزال محتفظة بعربيتها . وكان أثر العرب فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى من غيرهم من شعوب أهل أوربا . ويقول فون كريمر : « ومما يوضح لنا أن الأسطول العربى القديم كان نموذجا لأساطيل الاقطار المسيحية أن كثيراً من المصطلحات العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسن البحارة فى جنوب أوربا نذكر منها كلمة Cable الماخوذة عن لفظ « جبل » العربى وكلمة Arsenal وبالايطالية (Darsenal) الماخوذة عن لفظ « دار الصناعة » ، وكذا كلمة Carvette الماخوذة من لفظ (غراب) العربية ، و Admiral الماخوذة عن لفظ « أمير البحر (٢) » .

حسن ابراهيم حسن

(١) Khuda Bukhsh : Orient p 349 suiv.; Hell, p 71

(٢) Hell, p 71.

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(2) Khuda Bukhsh : Orient under the Kaliphs pp 35 et seq.

مرض البول السكرى

نصيحة من مريض (لله تعالى) إلى المرضى

مرضت بالبول السكرى والتجأت الى كل الطرق ولم أستفد سوى استفادة مؤقتة تزول بزوال العلاج إلى أن وفقنى الله تعالى إلى بعض أنواع بذور للنباتات لم أعرفها الا بعد وعاية محمد طاهر الصاوى بوكالة أبوزعبل بالجزاوى بمصر تليفون ٥٢٥٢٠ ولم يكلفنى تمنها سوى مبلغ عشرة قروش صاغ . وباستعمالها مدة أربعة أسابيع كانت النتيجة مرضية جدا ... فقد ظهر من نتيجة التحليل أن البول طبيعى بعد أن كان بنسبة ٥٥ فى الألف .

لذلك أخذت على نفسى عهدا أن انصح بها المرضى وأعتقد أن المحل المذكور لا يتأخر عن إرسالها لكل مريض ضربة للانسانية حتى تصل إليه فيمة الثمن المذكور

أحمد كمال .